حقيقة الوجود

م.د.أياد نعيم الساعدي

كلية التربية – جامعة ميسان

المقدمة:

يعتقد الإنسان منذ القدم بوجود قوة غيبية تفوق القوى الموجودة في الكون ولها القدرة على التدخل والتصرف في التغيرات الحاصلة عليه. ونتيجة لفطرة الإنسان ((... فطرت الله التي فطر الناس عليها...))[١] وضعفه ((...خلق الإنسان ضعيفا...))[٢] وفقره ((يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ...))[٣] ظهرت الحاجة لهذه القدرة الغيبية الهائلة ، ولكن جهل الإنسان وعدم قدرته على التفكير الصحيح وابتعاده عن أولياء الله مع وجود القوى الشيطانية التي تحاول تغيير المسيرة الفطرية للإنسان جعلته يعتقد بوجود هذه القوة الغيبية غير المقدور عليها في بعض الأشياء مما جعلته يهرب منها ويتعامل معها بحذر شديد. فكان لكل قوم وقبيلة نوع خاص من الأشياء التي يعتقد بها وبقدسيتها. وقد بقت الأحجار والتماثيل الخاصة مع الحيوانات والأشجار التي يعتقد بقدسيتها سابقاً إلى فترة متأخرة من الزمن مصدر عبادة وتقديس حسب العادات والتقاليد الخاصة بكل مجتمعٍ أملاً بنيل رضاها.

---

[١] – سورة الروم، الآية ٣٠.

[٢] – سورة النساء، الآية ٢٨.

[٣] – سورة فاطر، الآية ١٥.

وما قصة السامري واتخاذه العجل للعبادة إلّا نتيجة تأثير اعتقادات الأقوام التي قد سبقتهم ((واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار))[٤] فكان جواب نبي الله موسى((ع)) ((يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ...))[٥] ((إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم ...))[٦] رغم أن ما فعله السامري كان نتيجة الفطنة والذكاء الشديد ((قال فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضةً من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي))[٧]. فهذه الأشياء كلها إن دلت على شيء فإنما تدل على الحس الفطري للعبادة وسعي الإنسان الدائم لسد الحاجة ومعالجة الضعف بواسطة معرفة القوة الغيبية والتوسل بقدرتها على التغيير. وبذلك رسم لنا أمير المؤمنين ((ع)) خارطة الطريق ((أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده نفي الصفات عنه))[٨] للوصول إلى حد إشباع الحس الفطري ورفع الحاجة ومعالجة الضعف ونيل سعادة الدارين.

المبحث الأول: معرفة الحقيقة

المدخل:

حسب القدرة على استقبال الفيض الإلهي يفيض الله سبحانه وتعالى برحمته على عباده (الفاعل لا يفعل فعله دون استقبال القابل) عن طريق الأنبياء والأوصياء والأولياء لينذروا الناس ويهدوهم الى الصراط المستقيم ((...وإن من امة إلا خلا فيها نذير))[٩]. وما قصة نبي الله إبراهيم الخليل((ع)) مع النجم والقمر والشمس إلا دروس عملية في العبادة أراد النبي((ع)) من خلالها أن يبين ضعفها وعجزها في أفولها أمام خالقها ليدلي عليه

---

[٤]– سورة الأعراف، الآية ١٤٨.

[٥]– سورة البقرة، الآية ٥٤.

[٦] سورة الأعراف، الآية١٥٢.

[٧] – سورة طه، الآيتان ٩٥ و٩٦.

[٨] – أمير المؤمنين ((ع))، نهج البلاغة، ص٣٩، طبع في بيروت، ١٣٨٧ هـ، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية د.صبحي صالح، وطبع بالافست في قم، ايران، ١٣٩٥ هـ، انتشارات الهجرة.

[٩] – سورة فاطر، الآية ٢٤.

((فلمّا جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربّي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون))[١٠] .

هذا الأمر يوضح لنا أنّ أولياء الله دائمي السعي لهداية البشر عن طريق إصلاح الأخطاء الموجودة في تفكيرهم خلال حركتهم نحو الحقيقة الموجودة ((وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون))[١١] ((ونحن اقرب إليه من حبل الوريد))[١٢] ((واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه))[١٣] ((...ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا اكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثمّ ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم))[١٤] .

وعندما يقول الإمام علي((ع)): في نهج البلاغة: ((أول الدين معرفته...)) يكون لدينا يقين بأنّ معرفة الله تعالى ليست محالة، ولكن لا تتحقق المعرفة بكنه ذاته لا بالعلم الحصولي ولا بالعلم الحضوري. فبالعلم الحصولي يكون التعامل بالمفاهيم، فكيف يمكن من خلال المفاهيم أن نصل لكنه ذاته! وبالعلم الحضوري نحن محاطون ومحدودون ومتناهون وهو تعالى لا محاط ولا محدود ولا متناهي، ولذا من غير الممكن أن نحيط به إحاطة تامة ونتعرّف على كنه ذاته.

ومن جانب آخر لا يمكن تعريف ووصف هذه الحقيقة بكنه ذاتها؛ لان المعرِّف لابد له من أن يكون أعم أو مساوي للمعرَّف أي أنّ التعريف لابد أن يكون مانعاً جامعاً[١٥]، ولا يوجد شيء أعم أو مساوي للحقيقة ((وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما

---

[١٠]– سورة الأنعام، الآيات من ٧٦– ٧٨.

[١١] – سورة البقرة، الآية ١٨٦.

[١٢] – سورة ق، الآية ١٦.

[١٣] – سورة الأنفال، الآية ٢٤.

[١٤] – سورة المجادلة، الآية ٧.

[١٥] – الشيخ محمد رضا المظفر، المنطق، الجزء الأول، ص١١٩، مؤسسة مطبوعات اسماعيليان، ايران، قم، ١٣٨٨ هـ.

يشركون))[١٦]. وأمّا الوصف فلا يتحقق إلّا بعد الإدراك، والإدراك لا يمكن أن يتحقق بالحواس؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى تحديده، وتحديده يشير إلى نقصه، ونقصه يظهر فقره، وهو الغني على الإطلاق ((والله هو الغني الحميد))[١٧].

أمّا الحركة نحو رؤية الله تعالى وإدراك ذاته المقدسة فمحالة لتعذر المرء من النظر إلى قرص الشمس والاقتراب منها، فكيف بخالقها! وما جرى على النبي موسى ((ع)) عندما أراد أن ينظر إلى الله تعالى [((ولما جاء موسى لميقاتنا)) للوقت الذي حددناه لنزول التوراة ((وكلمه ربه قال ربّ أرني أنظر إليك)) رأيتك بقلبي وعقلي، وأحُب أن تتجلى لعيني عن إفراط شوق ((قال لن تراني))؛ لأنّ هذه الرؤية ممتنعة ذاتاً ((ولكن)) سأريك بعض آثار القدرة الإلهية ((انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني))، وإن لم يستقر الجبل في مكانه، فالرؤية إذن ممتنعة وغير ممكنة، وكأنه يقول لموسى: إن رؤيتي مستحيلة فلا تطلبها، ولكن اطلب شيئاً آخر، وهو كيف افعل بهذا الجبل فانظر إليه ((فلما تجلى ربه)) أي أمر ربه ((للجبل جعله دكا)) غار في الأرض ولم يبقى له عين ولا اثر ((وخر موسى صعقا)) غاب عن وعيه لهول المفاجأة ((فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك)) من سؤال رؤيتك ((وأنا أول المؤمنين)) بجلالك وعظمتك][١٨].

فمعرفة الله تعالى بكنه ذاته محالة ولكن يمكن معرفته بوجه من الوجوه، فالحقيقة موجودة والإنسان دائم البحث عنها رغم علمه بعدم إمكان المعرفة التامة بكنه ذاته؛ لأن المحدود لا يمكن له أن يسع اللامحدود والإحاطة به، ولكنّ الإنسان عن طريق العلم الحصولي والاستدلال بالبراهين يسعى لمعرفته والتصديق بوجوده تعالى. ويسعى أيضاً عن طريق العلم الحضوري والشهودي، كلاً بحسب ظرفيته ليعلم ويشاهد من الحقيقة دون الإحاطة التامة به تعالى؛ لأننا دائرة صغيرة في وسط دائرة كبيرة. ولذا لابد لنا من إقامة البرهان والحجة على وجود الحقيقة ((قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين))[١٩]. فكانت البراهين مختلفة ومتعددة، نوجز البعض منها في بحثنا هذا، وكما يلي:

---

[١٦] – سورة الزمر، الآية ٦٧.

[١٧] – سورة فاطر، الآية ١٥.

[١٨] – سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

[١٩] – سورة البقرة، الآية ١١١.

البرهان الأول[٢٠]:

الأجسام لا تخلو من الحركة والسكون، وكلاهما حادثان. وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، والأجسام كلها حادثه. وكل حادث مفتقر إلى محدث، ومحدثها ليس بجسم ولا جسماني، وهو الباري ((عز وجل)) دفعاً للدور والتسلسل.

البرهان الثاني[٢١]:

الحركة موجودة في العالم، وهي بحاجه إلى محرك. وسلسلة جميع الحركات لابد لها من أن تنتهي بمحرك غير متحرك. وهذا هو الله تعالى الذي هو غاية الحركة لأنه المعشوق الذي يتحرك نحوه العاشق بسبب الجاذبية التي يولدها العشق، وعلى أثر ذلك يتحرك الكون بجميع مكوناته نحو الله تبارك وتعالى.

البرهان الثالث[٢٢]:

عندما يتوجه فكر الإنسان نحو النظم والجمال الموجود في الكون ينتقل فكره ويتوجه نحو الأجمل والجميل الذي صنع الكون ونظمه وهو الله تعالى.

البرهان الرابع[٢٣]:

كلما وجد شيء مفضل وجد الأفضل من ذلك . وهذه النسبة موجودة في الكون بحيث أنّ الأشياء بعضها أفضل من بعض. إذن لابد من وجود الأفضل في كل شيء وهو الله سبحانه وتعالى وإلّا يلزم الدور والتسلسل.

---

[٢٠]- صدر المتألهين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، تسع مجلدات، ج٦،ص٤٣، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

[٢١]- المصدر نفسه، ج٦، ص٣٩. وأيضاً ابن سينا، شرح الإشارات والتنبيهات، مع شرح خواجه نصير الدين الطوسي وقطب الدين الرازي، ثلاث مجلدات، ج٣، ص٦٦، نشر البلاغة، قم، ١٣٧٥ش. وأيضاً عبد الرحمن بدوي، ارسطو، ص١٥٥-١٦٢، دار العلم، بيروت، ط٢.

[٢٢] – شارل فرنر، الفلسفة اليونانية، ترجمة تيسير شيخ الأرض، ص ١٦٧– ١٧٦، منشورات دار الأنوار، بيروت، ط١، ١٩٦٨.

[٢٣] – المصدر نفسه.

البرهان الخامس[٢٤]:

أنا أشك في كل شيء، ولكن لا اشك في أنني أشك، وبما أنني أشك فأنا أفكر، وبما أنني أفكر فأنا موجود[٢٥]. ولكن من أوجدني (علتي)؟ أمّا أنا فلا يمكن لي أن أكون علة نفسي لأنني غير قادر على تحقيق جميع أمنياتي، وأيضاً لا يمكن لي أن اخلد نفسي. إذن لابد من وجود علة لي وهو الله سبحانه وتعالى .

البرهان السادس[٢٦]:

نحن لدينا تصور عن موجود غير محدود مستقل ومطلق وعالم وقادر. وهذا التصور لا يمكن لنا أن نوجده نحن داخل أنفسنا، لأننا لا نتمكن من إيجاد مثل هكذا كمالات. والعلة لا يمكن لها أن تكون أنقص من المعلول، وهذا التصور لا يمكن له أن يكون وليد التجربة؛ لان مثل هذه الكمالات لا يمكن أن تأتي عن طريق التجربة. إذن لابد من وجود موجودٍ كاملٍ له هذه الكمالات وهو الذي أوجد التصور في أنفسنا، وهو الله سبحانه وتعالى.

البرهان السابع[٢٧]:

النفس الإنسانية في ذاتها مجردة عن المادة. والنفس تحدث مع حدوث البدن، لاستحالة تمايز النفوس عن بعضها البعض دون البدن، ولاستحالة التناسخ. والحدوث علامة الإمكان والفقر والحاجة إلى علة. وعلة حدوث النفس لا يمكن أن يكون الجسم أو أي أمر جسماني، لان النفس مجردة عن المادة، والجسم مادي، ومن حيث الوجود، المادي أضعف وأدنى من المجرد، والضعيف لا يمكن له أن يكون علة للأشرف والأقوى. وإذا كان الجسم علة حدوث النفس فان كل جسم لابد أن تكون له نفس، وهذا الأمر سيكون لجميع الأجسام، وهو ليس كذلك، لأننا نشاهد الكثير من الأجسام وخاصة الجمادات فاقدة للنفس، وأيضاً إنّ كل أمر جسماني يقبل الزوال ومحتاج للزمان والمكان. أمّا النفس فإنها منزّهة عن الزوال لأنّها خلقت لتبقى كما يصف ذلك

---

[٢٤] – جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة مارون خوري، ص ١٤–١٥، منشورات عويدات، ١٩٨٢، ط٣.

[٢٥] – رينه ديكارت ربما استفاد من برهان (الإنسان المعلق في الفضاء كالطائر) لابن سينا، والذي أقامه لإثبات علم الإنسان الحضوري بذاته في كتاب شرح الإشارات والتنبيهات، المجلد الثاني، ص٢٩٢، وأيضاً في كتاب الشفاء، قسم الطبيعيات، ص٢٦٤ و ص٢٨٢.

[٢٦] – جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، المصدر السابق، ص١٤–١٥.

[٢٧] – محمد حسين الطباطبائي، نهاية الحكمة، ص٢٧٢، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

صدرالدين الشيرازي (النفس جسمانية الحدوث روحانية البقاء)[٢٨] وأيضاً هي ما وراء الزمان والمكان. فإذن علة وجود النفس أمر مجرد عن المادة ، وهو الله سبحانه وتعالى.

البرهان الثامن[٢٩]:

الموجودات موجودة في العالم، وهذه الموجودات أما واجبة الوجود فثبت المطلوب أو ليست واجبة الوجود. وإذا كانت كذلك فهي ممكنة الوجود وبحاجة إلى علة. وهذه العلة إذا كانت غير واجبة الوجود فهي بحاجة إلى عله أخرى ويتسلسل، والتسلسل باطل ومحال؛ لأنّه يؤدي إلى عدم وجود الموجودات كون وجودها بحاجة إلى علة، تكون سبب وجود هذه الموجودات. وهذا خلاف المقدمة الاولى. إذن واجب الوجود موجود وهو الله سبحانه وتعالى.

براهين الصديقين:

قبل التطرّق إلى براهين الصديقين لابد من بيان أنّ هذا البرهان المسمى ببرهان الوجوب والإمكان ليس من البراهين القوية، بل الضعيفة التي يشكل عليها؛ لان ابن سينا((ره)) ينطلق فيه من المعلول إلى العلة، أي أنّه قبل أن يثبت وجود العلة يتطرّق إلى وجود المعلول. والجميع يعلم أن وجود المعلول من مستلزمات وجود العلة. أما البراهين الفلسفية ذات القيمة العالية هي التي تعمل لإثبات وجود العلة ومنها يتم الانطلاق لإثبات وجود المعلولات. ولهذا السبب لا تقتنع الفلاسفة بالبراهين الكلامية والطبيعية التي يتم فيها إثبات العلّة عن طريق المعلول، كالأثر الذي يدل على المؤثر والنظم الذي يدل على الناظم والحركة التي تدل على المحرك، وغيرها كثير من هذا القبيل.

لذلك انطلق الفلاسفة نحو السبيل الجديد الذي هو سبيل الصديقين الذي لا يكون فيه الوسط غيره تعالى، فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود وهو السبيل الذي يستشهدون به عليه، ثم يستشهدون بذاته على صفاته، وبصفاته على أفعاله واحداً بعد واحد. وكان الشيخ الرئيس سباقاً في طرح برهان الصديقين

---

[٢٨] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١٠٩، و ج٨، ص ٣٤٥. وأيضاً المحقق السبزواري، شرح المنظومة، ج٥، ص٦١، نشر ناب.

[٢٩] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص٤١-٤٢. وأيضاً نهاية الحكمة، المصدر السابق، ص٢٧١.

ضمن مساعيه لإثبات وجود الواجب تعالى دون التمسك والاعتماد على واسطة المخلوقات[٣٠] ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنّه الحقُّ أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد))[٣١].

البرهان التاسع[٣٢]، برهان الصديقين لابن سينا:

الوجود بما هو موجود أمّا واجب أو ممكن، فإذا كان واجباً فهو المطلوب، وإذا كان ممكناً فهو بحاجة إلى الواجب، وفي كلا الحالتين تم إثبات وجود الواجب تعالى.

البرهان العاشر، برهان الصديقين لملا صدرا[٣٣]:

يرى ملاصدرا أنّ برهان ابن سينا ليس برهان الصديقين كما يراه هو، بل برهانه من البراهين القريبة من برهان الصديقين؛ لأنّه يعمل على إثبات مفهوم الواجب تعالى لا المصداق المطلوب في إثبات برهان الصديقين[٣٤]. ولذا ينطلق ملاصدرا في برهان الصديقين لإثبات مصداق الواجب تعالى لا المفهوم، ويُعتبر برهانه من البراهين المحكمة والقوية جداً، ولذا قبل التطرّق إليه لا بد من شرح مسألة تشكيك الوجود وبعض الاصطلاحات الفلسفية الأخرى كالتساوق والبساطة.

التساوق هو غير التساوي ويعني أنّ المفهومين المتساوقين يكونان من حيث المصداق واحد، وحيثيت صدقهما واحدة.

والبساطة تعني عدم التركيب من أي شيء خارجي أو ذهني، وعدم وجود جزء خارجي أو ذهني.

---

[٣٠]– شرح الإشارات والتنبيهات، المصدر السابق، ج٣،ص٦٦

[٣١] – سورة فصلت، الآية ٥٣.

[٣٢] – شرح الإشارات والتنبيهات، المصدر السابق، ج٣، ص٦٦–٦٧.

[٣٣]– الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١٤–١٥.

[٣٤] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق ، ج٦، ص٢٦.

أمّا تشكيك الوجود فهذه المسألة من ابتكارات صدر الدين الشيرازي المعروف بملا صدرا. وهي أنّ نظام الوجود واحد ذو مراتب، ونسبة كل مرتبة إلى التي فوقها أضعف وأحوج وأفقر ، وإلى التي تحتها أقوى وأغنى وأشرف. واتحاد هذه المراتب بالوجود، واختلافها من حيث الشدة والضعف بالوجود أيضاً. وأمّا أغنى وأقوى وأتم وأشرف هذه المراتب فهي مرتبة الباري تعالى، وجميع ما سواه من مراتب الوجود عين الربط والتعلق به تعالى ((يا أيها الناس انتم الفقراء الى اللهِ واللهُ هو الغني الحميد))[٣٥]، أي أنّ ما سواه أشعته وتجلياته التي هي دائمة الفيضان منه سبحانه وتعالى. ويمكن تشبيه ذلك بشعاع الشمس، حيث أنّ ما كان منه أقرب إلى قرص الشمس يكون أقوى وأكثر تأثيراً، وما كان أبعد من قرص الشمس يكون أضعف وأقل تأثيراً، وجميع هذه الأشعة والحرارة متعلقة بقرص الشمس، ووجودها من وجوده. علماً أنّ قوة كل مرتبة من مراتب الوجود وارتقائها إلى المراتب العليا المؤثرة في الكون تتناسب طردياً مع المعرفة التي خُلقنا لأجلها ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا))[٣٦]، ولهذا جاءنا الحديث الشريف ((من سلك طريقاً في العلم سلك الله به طريقاً إلى الجنة)).

بيان برهان الصديقين لملا صدرا:

بعد التوضيحات أعلاه نتطرّق إلى بيان برهان الصديقين لملاصدرا وكما يلي:

حقيقة الوجود الخارجية أصيلة، وهذه الحقيقة مساوقة للوحدة، وهذه الحقيقة المساوقة للوحدة بسيطة، وهذه الحقيقة الأصيلة والمساوقة للوحدة والبسيطة مشككة (تشكيك الوجود). والحقيقة المشككة تختلف مراتبها عن بعضها البعض من حيث الشدة والضعف. فالمرتبة الشديدة والقوية هي مرتبة واجب الوجود بالذات، وأمّا ما دون ذلك فهي مراتب ضعيفة منتهية بالمرتبة الأقوى. فإذن واجب الوجود موجود، وهو الله سبحانه وتعالى.

تقرير آخر لبرهان الصديقين لملا صدرا:

[٣٥] – سورة فاطر، الآية ١٥.

[٣٦] – سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

قبل التطرق لتقرير هذا البرهان لا بد من بيان أنّ الفلاسفة الذين أتوا من بعد ملاصدرا قد ساروا على نفس المنهج الذي سار عليه ملاصدرا في طرح برهان الصديقين مستندين على أصالة وتشكيك الوجود واعتماد قلة المقدمات كما فعل العلامة الطباطبائي في كتاب نهاية الحكمة[٣٧]، وكما يلي:

الوجود أمّا واجب أو ينتهي بواجب. فإذا كان واجب فثبت المطلوب، وإذا انتهى بواجب أيضاً فهو المطلوب . إذن واجب الوجود موجود، وهو الله سبحانه وتعالى.

البرهان الثالث، برهان الصديقين للسيد آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني ((ره)):

يختلف الإمام الخميني((ره)) مع جميع الفلاسفة في بيان برهان الصديقين، فهو يرى أنّ حقيقة برهان الصديقين سلوك قلبي وشهودي لمشاهدة جمال جميل الحق تعالى. ولا يرى توصيفاً أجمل من توصيف القرآن للحق تعالى في الآية القرآنية ((هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيءٍ عليم))[٣٨]، ويقول: لو لم يكن في القرآن سوى هذه الآية القرآنية الشريفة لكفى لأهل العرفان[٣٩].

وعندما يتطرق إلى الصنع والنظم والترتيب المحير للعقول، يرى أنّ الإنسان عاجز عن العلم بالروح وقواها، وأمّا العلم بالبدن ظاهراً وباطناً فواضح عجز الإنسان فيه لما أظهره العلماء من عجز أمام هذا الصنع العجيب، فما بالك عند النظر في الكون الذي لا يعادل منه الإنسان إلّا ذرة. فالأرض وما فيها من موجودات لا تعد شيء أمام المنظومة الشمسية التي هي أيضاً لا تعد شيء أمام المنظومات الشمسية الأخرى. وجميع هذه الأنظمة الكلية والجزئية منتظمة ومرتبة وفقاً لنظام دقيق جداً، بحيث لا يمكن إيراد ذرة إشكال عليه، فهل يحتاج العقل إلى دليل آخر ليستدل عليه؟ ((أفي الله شك فاطر السموات والأرض))[٤٠]. فالعاجز أمام نظام

---

[٣٧] – نهاية الحكمة، المصدر السابق، ص٢٧١.

[٣٨] – سورة الحديد، الآية ٣.

[٣٩] – الإمام الخميني، شرح الأربعين حديثاً، النسخة الفارسية، مؤسسة تنظيم ونشر آثار حضرة الإمام الخميني ((ره))، الطبعة الرابعة عشر، صيف عام ١٣٧٦ش، شرح الحديث الثاني عشر، ص١٩٤-١٩٥.

[٤٠] – سورة إبراهيم، الآية ١٢.

هذا الكون، بل أمام نظام الإنسان الروحي والبدني مدعياً وجوده بنفسه دون وجود الإله، هل يحسب من زمرة العقلاء؟ فأي جهل هذا الذي لا يوجد أجهل منه![٤١] ((قتل الإنسان ما أكفره))[٤٢].

قال الإمام الباقر ((ع)): قال أمير المؤمنين علي ((ع)): ((اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأُلي الأمر بالمعروف والعدل والإحسان))[٤٣]، وأيضاً قال أمير المؤمنين ((ع)) ((ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله))، فذلك لظهور سلطان الآخرة على ذاته، وأنى يتحقق هذا المقام إلّا لمثله عليه السلام من الصديقين الذين يستشهدون به تعالى على الأشياء، لا بالاشياء عليه[٤٤].

وجوده في نهج البلاغة

بعد إثبات وجود واجب الوجود سبحانه وتعالى نذكر بعض ما قاله مولى الموحدين علي ((ع)) في نهج البلاغة حول الله ((عز وجل)): [الحمدُ لله الدال على وجوده بخلقهِ[٤٥]... الأولُ لا شيءَ قبله، والآخرُ لا غايةَ لهُ، لا تقعُ الأوهامُ لَهُ على صفةٍ، ولا تُعقَدُ القلوبُ منهُ على كيفيةٍ ولا تنالُهُ التجزئةُ والتبعيضُ، ولا تحيطُ به الأبصارُ والقلوبُ[٤٦] ... فتبارك اللهُ الذي لا يبلغُهُ بُعدُ الهِمَم ولا ينالُهُ حدسُ الفِطن، الأولُ الذي لا غايةَ له فينتهي ولا آخِرَ له فينقضي[٤٧] ... من وصفهُ فقد حدّهُ ومن حدّهُ فقد عدّهُ، ومن عدّهُ فقد أبطلَ أزلهُ، ومن قال((كيف)) فقد إستوصفَهُ، ومن قال ((أين)) فقد حَيّزَهُ. عالِمٌ إذ لا معلوم، وربٌ إذ لا مربوب. وقادرٌ إذ لا مقدور[٤٨] ... ما وَحَّدَه من كيّفَهُ ولا حقيقتهُ أصابَ من مَثَّلَهُ، ولا إياه عنى من شبَّهَهُ، ولا صَمَدَه من أشار إليهِ وتوهّمَهُ[٤٩] ...

---

[٤١] – شرح الأربعين حديثاً، المصدر السابق، ص ١٩٧– ١٩٨

[٤٢] – سورة عبس، الآية ١٧.

[٤٣] – صدر المتألهين الشيرازي، شرح أصول الكافي، كتاب التوحيد، المجلد الثالث، ص٦٠، الناشر، (پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي)، طهران، ١٣٨٣ش.

[٤٤] – المصدر نفسه.

[٤٥] نهج البلاغة، المصدر السابق، ص٢١١.

[٤٦] المصدر نفسه، ص١١٥.

[٤٧] – المصدر نفسه، ص١٣٨–١٣٩.

[٤٨] – المصدر نفسه، ص٢١٢.

[٤٩] – المصدر نفسه، ص٢٧٢.

سبقَ الأوقات كونه، والعدم وجودُهُ، والابتداءَ أزَلُهُ[٥٠] ... قد عَلِمَ السرائر وخَبَرَ الضمائِر، له الإحاطةُ بكل شيء والغلبةُ لكلِّ شيء والقوةُ على كل شيء[٥١] ... كُلُّ شيءٍ خاشعٌ له وكلُّ شيءٍ قائمٌ به: غِنى كل فَقير، وعزُّ كلِّ ذليل، وقوةُ كلِّ ضعيف، ومفزعُ كلِّ ملهوف. من تكلم سَمِعَ نَطقَهُ، ومن سكتَ عَلِمَ سِرَّهُ، ومن عاشَ فعليه رزقُهُ ومن ماتَ فإليه مُنقَلَبُهُ[٥٢]].

البرهان على ما تفضل به أمير المؤمنين ((ع)):

الكلام النوراني الذي تفضل به مولانا أمير المؤمنين ((ع)) لا بد من إقامة البرهان عليه لإثبات أنّ الله تعالى واحد لا ماهية له وغير مركب ولا شريك له ولا مؤثر في الكون إلا هو، وهو السميع العليم الخبير البصير، لنتمكن نحن عوام الناس من فهمه وإدراكه والتعمق في معرفته. والبراهين كما يلي:

البرهان الأول:

المعروف أنّ الماهية حدود الشيء الذي يقع في جواب ما هو، ولابد من الأمر الوجودي في تحققها وخروجها من حالة الاستواء. وكل ماله ماهية فهو ممكن الوجود . وينعكس إلى أنّ ما ليس بممكن فلا ماهيّة له. فالواجب بالذات لا ماهية له[٥٣].

البرهان الثاني:

إذا كان لواجب الوجود ماهية، فان نسبة وجوده إلى عدمه واحده. ولخروجه من حالة الاستواء لا بد من علّة. فإذا كانت العلة هي ذات الواجب تعالى يحصل الدور (تقدم الشيء على نفسه). وإذا كانت العلّة أمر خارج عن ذات الله أصبح الواجب محتاج إلى الغير. ولكن الواجب غني حميد وغير محتاج إلى الغير. فإذن واجب

---

[٥٠] – المصدر نفسه، ص٢٧٣.

[٥١] – المصدر نفسه، ص١١٦.

[٥٢] – المصدر نفسه، ص١٥٨.

[٥٣] – نهاية الحكمة، ص٢٧٣.

الوجود لا ماهية له[٥٤]. وبما أنّ الواجب تعالى لا ماهية له، فلا حد له، وإذ لا حد له فلا أجزاء حدية له، لان الأجزاء تتقدم على الكل، وتقدمها يعني أنّ الواجب تعالى بحاجة إليها، فيصبح محتاج وغير غني، والمحتاج ممكن الوجود وليس واجب الوجود، وهذا محال لأنّه غني على الإطلاق، فليس للواجب تعالى اجزاء[٥٥] (لا خارجيه ولا ذهنيه).

كما أنّ الواجب تعالى لا جزء له، فهو تعالى ليس جزء من شيء، لأنّه تعالى إذا كان جزء من شيء، فهذا الشيء ككل إما موجود أو معدوم. فإذا كان موجوداً، فيكون جزء نفسه، ولكنّ الشيء عين نفسه وليس جزء نفسه، ولذا يكون الكلام فيه محال. وإذا كان الكل معدوم، فيكون وجوده تعالى جزءاً من مجموعة معدومة، فيكون معدوماً أيضاً، وهو محال. وعليه فوجوده تعالى لا جزء له، ولا هو جزءاً من شيء.

البرهان الثالث:

وجود الشريك لله تعالى يتناقض مع التوحيد ((الله لا اله إلا هو ...))[٥٦]؛ لأنّ ذلك يعني وجود التفاوت فيما بينهما، وهذا التفاوت يظهر أنّ كل واحد منهما لديه شيء وشيء آخر ليس لدى الآخر، وهذا يعني التركيب لكلاهما من الكمال والنقص، والنقص يعني الفقر، والفقر يعني أنّ الموجود ممكن الوجود وليس واجب الوجود، وهذا محال لأنّه غني حميد لا يشوبه النقص[٥٧] ((لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا))[٥٨]. ((... وما كان معهُ من إلهٍ إذاً لذهب كلُّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضُهُم على بعض سبحان الله عما يصفون))[٤٥] .

مقام قاب قوسين أو أدنى:

لإثبات أنّ الواجب تعالى واحد لا شريك له، لا بد من إثبات أنّ الصادر منه تعالى واحد لا غير؛ لأنّ الواحد لا يصدر منه إلّا الواحد. فكان الرسول العظيم ((ص)) في أعلى المراتب القريبة منه تعالى ((فكان قاب قوسين

---

[٥٤] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص٤٨.

[٥٥] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١٠٠-١٠٣.

[٥٦] – سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

[٥٧] –الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص٥٧.

[٥٨] – سورة الأنبياء، الآية ٢٢

أو أدنى))[٥٩]، بحيث تمثّل بالرحمة الإلهية التي يفيض بها الله سبحانه وتعالى على الكون ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين))[٦٠]. ولهذا فان جميع ما في الكون في حركة نحو الرسول الأعظم ((ص)) ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً))[٦١].

فهو الصادر الأول من الباري تعالى في نظرية صدور الكثرة من الوحدة حسب رأي الحكماء[٦٢]، وهو الوالد الأكبر عند العرفاء، وآدم ((ع)) فهو الوالد الأصغر كما يتضح في كتاب شرح فصوص الحكم في فص حكمة فردية في كلمة محمديّة (إنّما كانت حكمته فردية، لأنّه أكمل موجود في هذا النوع الإنساني، ولهذا بُدأ به الأمر وخُتم، فكان نبياً وآدم بين الماء والطين ثم كان بنشأته العنصرية خاتم النبيين)[٦٣]، ولهذا نشهد في زيارة النبي ((ص)) فنقول: ((... أولِ النبيينَ ميثاقاً وآخرهم مبعثاً...))[٦٤].

لا مؤثر في الكون إلّا الله تعالى:

أمّا تأثيره في الكون، فلأنّ كل ما في الكون عين التعلق والربط بالله تعالى، وهذا الارتباط هو ارتباط الرابط بالمستقل[٦٥]، حيث أنّ جميع ما في الكون من موجودات بمثابة رابط بالنسبة لله تعالى، ولتحقيق وجودها لابد من الحاجة إلى العلّة، وكل علّة غير الله من حيث الفقر والحاجة بحاجة إلى علّةٍ أُخرى، وجميع العلل لا بد أن تنتهي بالعلّة التامة، وإلّا يلزم التسلسل، والتسلسل باطل ومحال، فهذه العلّة التامة هي وجود واجب الوجود سبحانه وتعالى، وهو الوجود المستقل الذي لا بد منه لوجود الرابط. [قال الرسول ((ص)): إنّه فوق كل شيء وتحت كل شيء، قد ملأت كل شيء عظمته فلم تخل منه أرض ولا سماء ولا بر ولا بحر ولا هواء، وقد روى

---

[٥٩] – سورة النجم، الآية٩.

[٦٠] – سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

[٦١] – سورة الاحزاب، الآية ٢١.

[٦٢] – شرح المنظومة، المصدر السابق، ج٥، ص٢٥٢.

[٦٣] داود القيصري، شرح فصوص الحكم، ، الجزء الثاني، ص ١٣٢٧–١٣٢٨، تحقيق آية الله حسن حسن زاده آملي، الناشر (بوستان كتاب) ،الطبعة الثانية، ١٣٨٦ش.

[٦٤] – مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، ص٣٨٤، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت، ٢٠٠٤م.

[٦٥] – الحكمة المتعالة، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٩–٣٣٠.

أنه قال موسى ((ع)): أقريب أنت فاناجيك أم بعيد انت فانناديك فإني أحس حسن صوتك ولا أراك فأين أنت؟ فقال الله أنا خلفك وأمامك وعن يمينك وشمالك، أنا جليس عند من يذكرني، وأنا معه إذا دعاني]"[٦٦]

لذا هو تعالى فاعل كل شيء والعلل كلها مسخرة له ((سبحانه وتعالى عما يشركون))[٦٧] ((الذي لهُ ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كلَّ شيء فقدَّره تقديرا))[٦٨].

المبحث الثاني: صفاته تعالى

المدخل:

التفكير بوجود الخالق يتزامن مع طرح أسئلة كثيرة من قبيل السؤال حول الصفات. فهل الباري تعالى من حيث الصفات شبيه الموجودات الأخرى، أو مختلف عنها بالكامل؟ وما هو الرأي والموقف تجاه بيان الآيات القرآنية القائلة بالتنزيه والتشبيه؟ فهل الأصل في التنزيه وتأويل ما كان يقتضي التجسيم والتشبيه، أم الأصل في التشبيه والتجسيم وتأويل ما يقتضي التنزيه.

مسألة صفات الواجب تعالى من مسائل بحوث علم الإلهيات المهمة في تاريخ الفكر الإسلامي، وقد تطرّق المتكلمون والفلاسفة من زوايا مختلفة لهذا الموضوع المهم. وأظهروا للصفات نوعين من التقسيم وعلى مرحلتين، ففي البداية تطرّقوا لتقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية، ومن ثمّ تطرقوا لتقسيمها إلى سلبية وثبوتية، والثبوتية إلى حقيقية وإضافية، والحقيقية إلى حقيقية محضة وحقيقية ذات الإضافة.

التقسيم الأول: الصفات الذاتية والفعلية:

توجد معايير مختلف لتمييز الصفات الذاتية عن الفعلية، إلّا إنّ أحكمها هو معيار الفلاسفة الحكماء الذين يروا أنّ الصفة تكون ذاتية أو فعلية بحسب انتزاعها من مقامها. فإن كان انتزاعها من مقام الذات المقدسة

---

[٦٦] – الحكمة المتعالية، المصدر نفسه، ص١٤٢.

[٦٧] – سورة يونس، الآية ١٨.

[٦٨] – سورة الفرقان، الآية٢.

فهي ذاتية[٦٩]، وإن كان انتزاعها من مقام الفعل فهي صفة فعلية. فمثلاً صفة الحياة والعلم والقدرة صفات ذاتية؛ لأنّها تنتزع من مقام الذات، وأما صفة الخالق التي تنتزع من مقام الفعل فهي صفة فعلية[٧٠].

ارتباط الصفات الفعلية بالذات المقدسة

تنتزع الصفات الفعلية من ارتباط المخلوقات والمعلولات بالواجب تعالى. والقصد من صفة القدرة على الفعل أنّ الواجب تعالى كخالق قادر على خلق المخلوقات، وكرازق قادر على رزق المخلوقات، وهذه الصفات وغيرها ترجع إلى الذات المقدسة؛ لأنّ القدرة من ضمن الصفات الذاتية التي هي عين الذات المقدسة. ولذا فإنّ الصفات الفعلية من حيث وجودها الاستقلالي وفي نفسها هي حقائق متكثرة وزائدة على الذات، وإذا قصدنا من الخلّاقية إيجاد المخلوق فهي صفة فعلية، لأنّ الإيجاد متعلق بمقام الفعل. أمّا إذا نظرنا لهذه الصفة ولغيرها من الصفات كحقائق غير مستقلة، ووجودها متعلق ورابط، وأخذناها في غيرها، فإنّ جميع هذه الصفات ستكون متعلقة بصفة القدرة التي هي من ضمن الصفات الذاتية، ولأنّ الواجب تعالى منشأ جميع الكمالات، وهذه الصفات بعض من تلك الكمالات القائمة بذاته تعالى، فإنّ لذاته قيومية على جميع الصفات. ولهذا يُعتقد أنّ جميع الصفات الفعلية ناشئة من صفة القيومية الذاتية التي تعني أنّ للواجب تعالى القدرة المطلقة، فتكون تلك الصفات على هذا الأساس ناشئة من الذات المقدسة[٧١].

من هنا فإنّ ارتباط الصفات الفعلية بالذات المقدسة كارتباط الحقيقة بالمفاهيم المتكثرة، فنحن ننتزع من صفة القيومية للذات المقدسة مفهوم الرازقية والخالقية والرحمة والإبداع والمنعم والرحيم والغفار و... وجميع هذه الصفات أعم من الفعلية والذاتية واحدة، وهي عين الذات المقدسة؛ لأنّ الكمال أولاً وبالذات ينسب للمبدأ وثانياً وبالعرض لذي المبدأ، فأولاً للفاعل وثانياً للفعل، فلا يمكن أن يكون الكمال نظير المبدأ أو متقدم عليه. وإذا قيل إنّ الصفات عين الذات فهذا لا يعني أنّها عندما تفاض من الذات وتصل إلى ماهيات المخلوقات تكون هي عين الذات، فهذا لا يمكن أبداً؛ لأنّ الكمال الذي يفاض على الموجودات ليس عين الذات، بل إنّ منشأ هذا الكمال هو عين الذات. فيجب أن لا يحصل الاشتباه ما بين الكمال الذي يعطى للممكنات ومبدأ

---

[٦٩] – صدر المتألهين، المبدأ والمعاد، ص٧٤، مجلد واحد، الناشر (انجمن حكمت وفلسفة ايران)، طهران، ١٣٥٤ش.

[٧٠] – نهاية الحكمة، المصدر السابق، ص٢٨٤.

[٧١] – صدر المتألهين، المظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية، ص ٣٩، مجلد واحد، الناشر (بنياد حكمت صدرا)، ايران، طهران.

هذا الكمال، فكمال المبدأ أولاً وبالذات يكون للمبدأ، وما يفاض على الممكنات فهو فيض وأثر غير الفياض والمؤثر؛ لأنّ المعلول غير العلة[٧٢].

التقسيم الثاني: الصفات الثبوتية والسلبية:

يطلق على الصفات الثبوتية بالصفات الجمالية، والصفات السلبية بالصفات الجلالية ((تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام)). فالجلال ما جلت ذاته عن مشابهة الغير، وفيها إشارة إلى الصفات السلبية، والإكرام والجمال ما كرمت وجملت ذاته بها، وفيها إشارة إلى الصفات الثبوتية[٧٣].

وهنا يجب الإشارة إلى أنّ الصفات السلبية إذا كانت بمعنى سلب الوجود أو سلب الكمال فإنّها لا تليق بمقام الذات الإلهية؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى التركيب في ذات الحق تعالى، والتركيب يستلزم الإمكان؛ لأنّ الممكن زوج تركيبيّ من الوجود والماهية، وهذا يعني أن تصبح الذات الإلهية مركبة من الوجود والعدم أو من الكمال والنقص. ومثل هذا السلب يمكن أن يتحقق للممكنات؛ لأنّها لا تخلو من التركيب وغير جامعة لجميع الكمالات، فيمكن سلب بعض الكمالات عن الإنسان مثلاً، ولكن هذا ما لا يجوز أن يحصل للباري تعالى.

وعليه فإنّ المقصود من الصفات السلبية سلب واحد يتبعه جميعها وهو سلب الإمكان الذي هو سلب النقص وسلب الاتصاف بصفات النقص، يعني أن نسلب النقص عن الواجب تعالى[٧٤]، فمثلاً عندما نقول ليس بجسم، فإننا نسلب منه الجسمانية والمحدودية؛ لأنّ التغيير الذي يطرأ عليها يستلزم التغيير في الذات المقدسة، وحاشا له تعالى أن يطرأ عليه أي تغيير، فالصفات السلبية هنا تعني سلب النقص ونفي النفي الذي يرجع لإثبات الشيء. وكما أنّ الصفات الكمالية تعني إثبات الكمال، فالصفات السلبية كعدم الجهل وعدم الحاجة وعدم العجز و... ترجع إلى سلب النقص ونفي النفي الذي هو إثبات الكمال. وعليه فإن الصفات الجلالية والكمالية ترجع إلى إثبات الكمال الذي هو عين الذات المقدسة وليس بزائد عليها. وكما قيل شعراً[٧٥]:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

---

[٧٢] – صدر المتألهين، مفاتيح الغيب، مجلد واحد، ص ٣٢٥، الناشر (موسسه تحقيقات فرهنگى).

[٧٣] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١١٨.

[٧٤] – المبدا والمعاد، المصدر السابق، ص٧٤-٧٥

[٧٥] –المبدأ والمعاد، المصدر السابق، ص٧٤.

الصفات الحقيقية والإضافية:

قام المتكلمون والفلاسفة بتقسيم الصفات الثبوتية إلى صفات إضافية وحقيقية، فأما الصفات الإضافية فهي الإضافة والنسبة كالعالمية والقادرية والرازقية و...، وهي بلا شك زائدة على الذات المقدسة؛ لأنها مفاهيم اعتبارية غير حقيقية وذات الباري تعالى أقدس من أن يكون مصداقاً لهكذا مفاهيم. ولأنّ هذه الصفات لا عينية لها، ولا يوجد أحد قائل بعينيتها، فلا إشكال في نسبتها إلى الباري تعالى؛ لأنها لا تظهر نقصاً في الذات المقدسة رغم تعلقها بطرفي الإضافة في مقام التصور والتصديق، وتغيرها في حال تغير طرف الإضافة لا يوجب تغير في الذات المقدسة، بل هي فقط تتغير دون الضرر بالذات المقدسة؛ لأنّ الصفات الإضافية أمور اعتبارية.

كما أنّ صفاته الحقيقية كلها حقيقة واحدة لا تزيد على ذاته تعالى وإن تغايرت مفاهيمها وإلا لكانت ألفاظها مترادفة فكذا صفاته الإضافية وإن كانت زائدة على ذاته متغايرة بحسب المفهوم لكن كلها إضافة واحدة متأخرة عن الذات، ولا تخل بوحدانيته كونها زائدة عليه فإنّ الواجب تعالى ليس علوه ومجده بنفس هذه الصفات الإضافية المتأخرة عنه وعما أضيف بها إليه وإنّما علوه ومجده وبهاءه بمبادئ هذه الصفات التي هي عين ذاته الأحدية، أي يكون ذاته تعالى في ذاته بحيث ينشأ منه هذه الصفات وينبعث عنه هذه الإضافات[٧٦]. وعادة النسبة والإضافة لا تتحقق إلّا بوجود طرفين مستقلين، في حين غير الله تعالى مهما كان فهو عين الربط والتعلق به تعالى، وليس له وجود استقلالي كوجوده تعالى، ولكن العقل في مقام التصور يعتبر ذلك وينتزع النسبة فيما بينها وبين الواجب تعالى، وإلّا فلا نسبة واقعية بينها وبينه تعالى[٧٧]. وعليه فإنّ الصفات الإضافية هي صفات زائدة على الذات المقدسة وغير ذاتية، والذات المقدسة ليست مصداق لها. وأما الصفات الحقيقية فهي بدورها تنقسم إلى قسمين: الصفات الحقيقية المحضة والصفات الحقيقية ذات الإضافة.

[٧٦] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١٢٠-١٢١.

[٧٧] – نهاية الحكمة، المصدر السابق، ص٢٨٨.

الصفات الحقيقية المحضة والصفات الحقيقية ذات الإضافة:

الصفات الحقيقية المحضة مجردة عن كل نسبة وإضافة كالحي والحياة والنور، وهي في مقام التصور المفهومي وفي مقام التصديق مرتبطة بالذات المقدسة، فهي في مقام التصور والتصديق لا تحتاج إلى طرف آخر غير الذات المقدسة، ولذا يقال عنها ذاتية[٧٨].

أمّا الصفات الحقيقية ذات الإضافة كالقدرة والعلم فإنّها في مقام التصور المفهومي تحتاج إلى طرف ثاني لا بد من تصوره لانتزاعها من الطرفين، أمّا في مقام التصديق والتحقق فلا تحتاج إلى طرفين. أي أنّ امتلاك هذه الصفات بالنسبة للواجب تعالى لا يحتاج إلى الغير، ولكن في مقام التصور المفهومي يحتاج إثباتها إلى الغير؛ لأنّها تنتزع من الارتباط ما بين الطرفين[٧٩].

وعليه يكون تحقق الصفات الحقيقية ذات الإضافة في الذات الإلهية بصورة مستقلة دون الحاجة إلى وجود أي طرف، فمثلاً تحقق العلم للباري تعالى واتصافه به غير مشروط بتحقق طرف ثاني، وكذلك الأمر بالنسبة لصفة العالم والقادر والخالق و... فالواجب تعالى عالم وخالق وقادر إن وجدت المخلوقات أم لا. وأما في مقام التصور المفهومي لهذه الصفات فلا بد من تصور الطرفين (العالم والمعلوم، والقادر والمقدور، والخالق والمخلوق، و...)؛ لأنّ العلم والقدرة والخلق في مقام التصور المفهومي ينتزعان من تصور الطرفين. وعليه فإنّ هذه الصفات في مقام التصور المفهومي مبتنية على الطرفين، وفي مقام إطلاقها وصدقها على الواجب تعالى فلا تبتني على الطرفين بل يكفي وجود الذات المقدسة فقط.

الآراء حول إثبات ونفي الصفات الحقيقية عن الباري تعالى:

الصفات الحقيقية هي الصفات الذاتية التي هي عين ذات الواجب تعالى، والصفات الفعلية التي هي أمور واقعية؛ لأنّ صفة الفعل عين الفعل، وفعل الباري تعالى موجود حقيقيّ. والأمر هنا يدور بين نفي الصفات عن الباري تعالى خوفاً من ورود التركيب على ساحة الذات المقدسة كما هو الحال لرأي المعتزلة، بمعنى أنّ

---

[٧٨] – المظاهر الإلهية في أسرار العلوم الجمالية، المصدر السابق، ص٣٨.

[٧٩] – نهاية الحكمة، المصدر السابق، ص٢٨٨.

الذات المقدسة تنوب عن عمل الصفات[٨٠]، فمثلاً تكون الذات المقدسة خالية من صفة العلم وهي تعلم، وخالية من صفة الرحمة وهي ترحم. ويقابل هذا الرأي اعتقاد الأشاعرة القائل بزيادة الصفات على الذات المقدسة، فهم يعتقدوا بوجود الذات المقدسة وثمان صفات قديمة أخرى هي (العلم، القدرة، الحياة، السمع، البصر، الإرادة، الكلام، البقاء)[٨١] جميعها صفات قديمة بالغير، أمّا الذات المقدسة فقديمة بالذات. وهذا الأمر يتضح بجلاء في منظومة السبزواري[٨٢]:

الأشعري بازدياد قائل وقال بالنيابة المعتزلة

أما الكرامية فقد أفرطوا في رأيهم، حيث اعتقدوا بحدوث الصفات الزائدة على الذات، وهذا ما يؤدي إلى حصول تجدد إنفعالي يستلزم وجود فاصلة زمانية، أي أنّ الباري تعالى في وقت ليس لديه صفات، وفيما بعد صارت له، وهذا محال؛ لأنّه لا يناسب الذات المقدسة، وسنوضح هذا الأمر فيما بعد. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ فقدان الذات المقدسة للصفات بمعنى فقدان الكمالات، وهذا ما لا يتناسب مع وجوده تعالى. وإذا كانت الصفات حادثة فتحتاج إلى محدث يكون علّة لها، فإن كانت ذات الواجب تعالى، فاقد الشيء لا يعطيه، وإن كانت غيره، فسيكون محتاج للغير أو تعدد الواجب تعالى، وكلاهما باطل ومحال[٨٣].

والاحتمالات في باب الصفات، إمّا أن نسلب الصفات من الذات المقدسة ونصبح معطلة، أو أن نثبتها للذات المقدسة، ولكن تكون زائدة عليها فنصبح مشبهة، وإما أن نكون من الأمة الوسط الذين لا يلحقهم الغالي ولا يفوتهم المقصر[٨٤] وعليه يجب تنزيه الذات المقدسة عن التعطيل والتشبيه، ونقول إنّ للواجب تعالى صفات كمالية هي عين الذات المقدسة، وهذه العينية هي مصداقية وليست مفهومية. فتكون هذه الصفات الكمالية متحدة من حيث المصداق ومتعددة من حيث المفهوم (على نحو يعلمه الراسخون في العلم من أنّ وجوده تعالى الذي هو عين حقيقته، هو بعينه مصداق صفاته الكمالية، ومظهر نعوته الجمالية والجلالية،

---

[٨٠] – شرح المنظومة، المصدر السابق، ج٣، ص٥٦٠.

[٨١] – صدر المتألهين، المشاعر، ص٥٤، مجلد واحد، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

[٨٢] – شرح المنظومة، المصدر السابق، ج٣، ص٥٥٨.

[٨٣] الحكمة المتعالية، المصدر نفسه، ج٦، ص ١٢٣-١٢٤.

[٨٤] – صدر المتألهين، العرشية، مجلد واحد، ص٢٢٣-٢٢٤، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠م.

فهي على كثرتها وتعددها موجودة بوجود واحد من غير لزوم كثرة وانفعال وقبول وفعل)[٨٥]. وكلما يتجرد الموجود عن المحدودية يكون مجمع الصفات المتضادة كما جاء في الدعاء ((وأيقنت أنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة))، ((وهو الأول والآخر والظاهر والباطن))[٨٦].

الدليل البرهاني على العينية المصداقية للصفات:

١- إذا كانت الصفات الثبوتية زائدة على الذات المقدسة، فستكون في مرتبة ذاتها خالية من جميع الكمالات. فإما أن تحصل الذات على هذه الصفات من ذاتها المقدسة أو من الغير. فإذا حصلت الذات على الصفات من ذاتها فسيحصل اتحاد الفاعل والقابل بمصاحبة التجدد الانفعالي، وهذا ما لا يناسب الذات المقدسة؛ لأنّ اتحاد الفاعل والقابل المصاحب للتجدد الانفعالي كما يحصل للحائط مثلاً قبل وبعد صبغه يكون مناسباً للممكنات لا الواجب تعالى[٨٧]. بالإضافة إلى ذلك فإنّ المشكلة الأكبر عندما تكون الذات خالية من الصفات الكمالية، كيف يمكن لها إعطاء الصفات لذاتها ((فاقد الشيء لا يعطيه))! وإذا حصلت الذات على الصفات الكمالية من الغير أصبحت الذات المقدسة محتاجة للغير، وهو محال؛ لأنّه الغني الحميد[٨٨].
٢- إذا كانت الصفات الكمالية زائدة على الذات المقدسة، فإنها عندما تحصل على الصفات الكمالية من ذاتها، فإنّ الذات التي تعطي تكون أشرف، وعندما تحصل على الكمالات تكون غير أشرف؛ لأنّ جهة الإعطاء أشرف من جهة الأخذ، فهنا تناقض ما بين الجهتين، والتناقض باطل ومحال[٨٩].
٣- من الأفضل والأشرف؟ الواجب الذي يكون في مرتبة الذات واجد للصفات الكمالية، أو الواجب الذي يكون في مرتبة الذات فاقداً للصفات الكمالية، فالأول تجمله بذاته، والآخر تجمله بالغير، فالواجب الذي يكون

---

[٨٥] – المشاعر، المصدر السابق، ص٥٤، وأيضاً صدر المتألهين، الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، ص٣٨، مجلد واحد، المركز الجامعي للنشر.

[٨٦] – سورة الحديد، الآية٣.

[٨٧] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١٢٦. وأيضاً المبدأ والمعاد، المصدر السابق، ص٦٧-٦٨.

[٨٨] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١٢٣

[٨٩] – المبدأ والمعاد، المصدر السابق، ص٧٣.

تجمله بذاته أفضل وأشرف من الواجب الذي يكون تجمله بالغير[٩٠]. وأيضاً فإنّ الذات المقدسة الفياضة والواهبة لجميع ما في الكون كيف يمكن لها ذلك وهي تعاني النقص والفقدان!

بيان أمير المؤمنين((ع)): حول الصفات:

تطرّق الإمام علي ((ع)) في نهج البلاغة إلى معرفة الواجب تعالى وبيان صفاته قائلاً: ((أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده نفي الصفات عنه))[٩١]، وعندما يصل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة إلى عبارة ((نفي الصفات عنه)) يعتقد بأنّها مؤيدة لرأي المعتزلة، إلّا إنّ الأمير ((ع)) في هذه الخطبة في عباراته السابقة لنفي الصفات عنه تعالى، يقول: ((الذي ليس لصفته حدّ محدود))[٩٢] ليؤكد على نفي الصفات المحدودة المتناهية وإثبات الصفات اللامحدودة واللامتناهية. فالذات المقدسة كما يتضح من خلال بيان الإمام ((ع)) أنّها تمتلك جميع الصفات الكمالية التي لا حدّ لها، وأمّا الصفات المحدودة المتناهية فمنتفية عنه تعالى؛ لأنّ الصفات المحدودة المتناهية يمكن أن يكون لها تعدد خارجي وتكثر مصداقي، ويمكن أن تكون زائدة على الذات، ولا تنسجم مع الصفات الإلهية غير المتناهية.

علمه تعالى:

أمّا علمه تعالى، فإننا نعلم أنّ العلم علمان: حضوري (حضور المعلوم لدى العالِم) وحصولي (حضور صورة المعلوم لدى العالِم). ومن خلال دراسة العلوم العقلية يتضح أن الموجود المجرد عن المادة له علم حضوري بذاته لتجردها عن المادة، وهذا هو العلم الخاص بالله تعالى لأنّه منزّه عن المادة، وهو لا يغفل عن ذاته أبداً، فما سواه من الموجودات معاليل له منتهية إليه بلا واسطة أو بواسطة وسائط قائمة الذوات به تعالى قيام الرابط بالمستقل، فتكون حاضرة عنده بوجوداتها غير محجوبة عنه، فهي معلومة له في مرتبة

---

[٩٠] – الحكمة المتعالية، المصدر السابق، ج٦، ص١٢٤.

[٩١] – نهج البلاغة، المصدر السابق، ص٣٩.

[٩٢] – نهج البلاغة، المصدر السابق، ص٣٩.

وجوداتها علماً حضورياً. أمّا المجردة منها فبأنفسها، وأمّا المادية فبصورها المجردة[٩٣] ((لا تأخذه سنة ولا نوم))[٩٤].

وبما أنّ ذات الباري تعالى خالية من أي نقص وعدم، فكل كمالٍ يعطيه حسب التنظيم والترتيب الخاص به موجود لديه وبنحو أحسن وأشرف وأتم. ولأنّ جميع ما سواه معلوم له ومنتهي به بشكل مباشر أو غير مباشر وجميعها عين الربط والتعلق به تعالى وحاضرة لديه دون وجود أي حجاب يحجبها عنه وهي تجلياته وأشعته، وعلمه بها نتيجة رؤيته لها ((ألم يعلم بان الله يرى))[٩٥]، فهو يعلم بالعلم الحضوري جميع الموجودات((وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء))[٩٦] ((...وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة))[٩٧] ((... أمّن يملك السمع والأبصار))[٩٨]. نعم هو الباري تعالى يملك كل شيء ويراه، ويعلم به دون أن يتمكن أي موجودٍ سواه من إدراكه ((لا تدركه ألأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير))[٩٩].

---

[٩٣] – نهاية الحكمة، المصدر السابق، ص٢٨٩

[٩٤] – سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

[٩٥] – سورة العلق، الآية ١٤.

[٩٦] – سورة يونس، الآية ٦١.

[٩٧] – سورة الملك، الآية٢٣.

[٩٨] – سورة يونس، الآية ٣١.

[٩٩] – سورة الأنعام، الآية١٠٣.

النتيجة:

الإيمان الذي نهى الله سبحانه وتعالى عنه ((قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا...))[١٠٠] هو الإيمان القشري الذي يمكن وبسهولة زواله أمام أبسط مغريات الحياة الدنيا. أمّا الإيمان الذي أمر به، فهو الإيمان المتجذر عقلياً، والذي لا زوال له ولا اضمحلال ((... ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم...))[١٠١] أي في عقولكم. وهذا الإيمان التوحيدي بوجود الله تعالى هو الجذر والأصل الثابت للشجرة الطيبة التي لطالما أثمرت عن منظومة أخلاقية لا مثيل لها ((... كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كلَّ حين بإذن ربِّها))[١٠٢]. ولكنّ هذا الإيمان الراسخ بوجود الله تعالى والتصديق به ليس بالأمر السهل والهين، بل لا يمكن أن يتحقق إلّا بعد التطلع للأمور المعنوية وعدم الانغماس في الشهوات والرغبات، وهذا ما يتطلب منا السير والغور في مراتب العلم والمعرفة والحكمة التي هي أساس الوصول إلى ذلك ((ومن يؤت الحكمة فقد أتي خيراً كثيراً))[١٠٣]، بالإضافة إلى تزكية النفس ((قد أفلح من زكاها))[١٠٤].

وكما ويتضح من حكمة الإمام علي ((ع)) ((من أبصر بها أبصرته ومن أبصر فيها أعمته)) فإنّ غاية الإنسان إذا كانت الدنيا وما فيها من ماديات وشهوات ورغبات فمصيره الخسران المبين؛ لانّ الله تعالى لم يخلقه له. وأمّا إذا كانت الدنيا وسيلة لغايته فقد نجا واستطاع أن يصل للمراد الذي هو الله سبحانه وتعالى، وفضيلة هذا الوصل تتضح من خلال قول الإمام جعفر الصادق((ع)) ((لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى لما مدوا أعينهم إلى ما مُتِعَ به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها وكانت دنياهم أقل مما يطؤون بارجلهم ولتنعموا بمعرفة الله تعالى وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله. إن معرفة الله تعالى أنس من كل وحشة وصاحب من كل وحده ونور من كل ظلمة وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم))[١٠٥].

---

[١٠٠] –سورة الحجرات، الآية ١٤.

[١٠١] – سورة الحجرات، الآية ١٤.

[١٠٢] – سورة إبراهيم، الآية ٢٤.

[١٠٣] – سورة البقرة، الآية٢٦٩.

[١٠٤] – سورة الشمس، الآية ٩.

[١٠٥] – الفيض الكاشاني، أصول المعارف، مجلد واحد، الناشر (دفتر تبليغات اسلامي)، ص١٧٣.

المصادر

القرآن الكريم.

ابن سينا، شرح الإشارات والتنبيهات، مع شرح خواجه نصير الدين الطوسي وقطب الدين الرازي، ثلاث مجلدات، نشر البلاغة، قم، ١٣٧٥ش.

الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان، مجلد واحد، دار ومكتبة الهلال، لبنان– بيروت، ٢٠٠٤م.

الشيخ محمد رضا المظفر، المنطق، الجزء الأول، مؤسسة مطبوعات اسماعيليان، ايران، قم، ١٣٨٨ هـ.

الفيض الكاشاني، أصول المعارف، مجلد واحد، الناشر (دفتر التبليغات الإسلامي).

المحقق السبزواري، شرح المنظومة، خمس مجلدات، الناشر (نشر ناب).

أمير المؤمنين ((ع))، نهج البلاغة، طبع في بيروت، ١٣٨٧ هـ، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية د.صبحي صالح، وطبع بالافست في قم، ايران، ١٣٩٥ هـ، انتشارات الهجرة.

ثقة الإسلام الكليني، أصول الكافي، أربع أجزاء، مع الترجمة والشرح للسيد جواد مصطفوي، الناشر (جابخانه بيام)، ١٣٦٤ش.

جان فال، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر، ترجمة مارون خوري، ص ١٤–١٥، منشورات عويدات، ١٩٨٢، ط٣.

داود القيصري، شرح فصوص الحكم لإبن عربي، تحقيق آية الله حسن حسن زاده آملي، الناشر (بوستان كتاب)،الطبعة الثانية، ١٣٨٦ش.

روح الله الموسوي الخميني، شرح الأربعين حديثاً، الناشر (موسسه تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني ((ره))، الطبعة الرابعة عشر، ١٣٧٦ش.

شارل فرنر، الفلسفة اليونانية، ترجمة تيسير شيخ الأرض، منشورات دار الأنوار، بيروت، ط١، ١٩٦٨.

صدر المتألهين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، تسع مجلدات، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢م.

_____، الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، مجلد واحد، المركز الجامعي للنشر.

_____، المشاعر، مجلد واحد، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

_____، العرشية، مجلد واحد، انتشارات مولى، طهران.

_____، مفاتيح الغيب، مجلد واحد، الناشر (موسسه تحقيقات فرهنگي)، طهران، ١٣٦٣ش

_____، المبدأ والمعاد، مجلد واحد، الناشر (انجمن حكمت وفلسفة ايران)، طهران، ١٣٥٤ش.

_____، المظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية، مجلد واحد، الناشر (بنياد حكمت صدرا).

_____، شرح أصول الكافي، أربع مجلدات، الناشر (پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي)، طهران، ١٣٨٣ش.

عبدالرحمن بدوي، أرسطو، مجلد واحد، دار القلم بيروت– لبنان، ١٩٨٠.

محمد حسين الطباطبائي، نهاية الحكمة، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.